المثقّف الانتهازي والمثقّف الهروبي في رواية التجربة الناصريّة

الدكتور سماح ادريس

الصفحات التالية جزءٌ من فصل بعنوان «المثقّفون السياسيّون: خصائصهم وعلائقهم بالسلطة في الرواية» ـ وهو الفصل الثاني من كتاب جديد يصدره الدكتور سماح ادريس عن «دار الآداب» الشهر القادم بعنوان **المثقّف العربي والسلطة ـ بحث في رواية التجربة الناصريّة**. والجدير ذكره أنَّ المؤلِّف قد سبق أن تحدَّث في الأجزاء السابقة من كتابه عن الأنماط التالية من الشخصيات الروائيّة المسيَّسة: «الموالي ولاءً مطلقاً»، و«الاعتذاري»، و«الموالي بتحفّظ»، و«الرافض»، و«المُسْتَعْدى».

أ ـ المثقّف الانتهازي

تُعالج الصفحات التالية أسبابَ انتشار النماذج الثقافية الانتهازية في «روايات التجربة الناصرية»، والعوامل التي تدفع تلك النماذج إلى سلوك الانتهازية، والوسائل التي تستخدمها للتقرّب من المؤسّسة الناصريّة، والمخاطر التي تشكّلها تلك الانتهازيّة.

I ـ ابراهيم خيرت المحامي وعضو مجلس النوّاب أثناء حكم حزب الوفد «يلحقُ الرَّكْبَ» حالَ نجاح الثورة.(١) فهو يكتب للثورة بقلمه في أكثر من صحيفة «كأنّه ضَابطٌ من رجالها»، ولا يلبث أن يُهاجم الأحزابَ وحِزْبَهُ ضِمْنَها والعَهْدَ البائد «كأنَّهُ لم يكن أحدَ رجاله» من قبلُ.(٢)

أمَّا حسن، وهو ابن عم بطل **السَّمان والخريف** عيسى، فيُعَيَّنُ نائباً لمدير شركة جديدة للإنتاج والتوزيع السينمائيين بسبب تأييده للثورة. غير أنّ شعاراته الثورية وتواضعه و«أريحيّته» لا تلبث أن تتكشّف عن زيْفٍ فاضح؛ فإذا به يتزوّج من امرأةٍ تنتمي إلى أسرةٍ غنيّة ويقود سيَّارة مرسيدس فخمة، وإذا بقامته تُبدي «استعلاء»، وبعيْنيه تُظهران «سيادة مُطْلَقة» لا تُعبّر في أيّ حال من الأحوال عن إيمانٍ حقيقيّ بالثورة.(٣)

* * *

(١) نجيب محفوظ، **السمّان والخريف** (القاهرة: مكتبة مصر، ١٩٧٧)، ص ٦٦.
(٢) المصدر السابق، ص ٤٦.
(٣) المصدر السابق، ص ٧٦.

رؤوف علوان فلّاحٌ فتيّ «رثُّ الثِّياب، كبيرُ القلب، قَلَمُهُ صادِقٌ مُشِعّ.»(١) وهو طالبٌ متحمِّسٌ في كُلّيّة الحقوق، ومُحرّرٌ في جريدة النذير يصبُّ على صفحاتها جامَ غضبه على النظام والتقاليد البالية، ويُحاضِر في الشبّان عن قضايا الصراع والتحرير ويُدرّبهم استعداداً للثورة. وتنجح الثورة، فيصبح رؤوف مُحَرّراً في جريدة الزّهْرَة ويكتب على صفحاتها عن مكبّرات الصَّوْت والأزياء، ويجيب على تساؤلات امرأة «مجهولة». بل إننا نعلم أنه يعيش الآن في ڤيللا بيْضاء، وهي الڤيللا نفسها التي كان سعيد مهران قد سرقها بناءً على تعاليمِه.(٢) «لقد زال تماماً جميعُ ما كان ينغّصُ علينا صَفْوَ الحياة»، ولذلك فهو يطلب من سعيد البائس الخارج لتوّه من السّجن أن يتوقّف عن السّرقة:

> كُنتَ لِصّاً وكنتَ صديقاً لي في ذات الوقت لأسباب أنت تعرفها. ولكنّ اليومَ غيرُ الأمس. إذا عُدْتَ إلى اللُّصوصِيّة، فلن تكونَ إلّا لِصّاً وحسب!(٣)

* * *

سرحان البُحَيْري ينتمي إلى أسرة ذات أصول فلّاحية لم يسمع بها عامر وجدي ولا طلبة مزروق.(٤) لكنّه ما إن يبلغ الثلاثين حتى

(١) نجيب محفوظ، **اللصّ والكلاب** (القاهرة: مكتبة مصر، ١٩٦١)، ص ٣٤.
(٢) المصدر السابق، ص ٣٣ و٤١.
(٣) المصدر السابق، ص ٤٤.
(٤) نجيب محفوظ، **ميرامار** (القاهرة: مكتبة مصر، ١٩٦٧) ص ٤٩ ـ ٥٠: «شيءٌ في وجهه الأسمر الواضح الملامح يَشي بأنّه فلّاح.. لم أسمعْ عن الأُسْرة من قبلُ ولا بدا على طلبة نفسه أنّه سمع بها...»

يصيرَ من رجال الاقتصاد الذين «تعتمد عليهم الدولة.»[1] وقد سبق له أن تنقّل من «هيئة التحرير» إلى «الاتحاد القومي»، قبل أن يُعيّن وكيلَ حسابات شركة الاسكندرية للغَزْل وعضواً بلجنة العشرين وعضواً في مجلس إدارة الشركة. ويعتبر سرحان نفسه «مُمَثِّل الثورة»، و«عدوّ أعدائها» و«ثورياً اشتراكياً.»[2] إلاّ أنّ الرواية تجلو حقيقته بما لا يحتمل الشكّ: فهو لا يُدافع عن الفلاّحين والثورة إلاّ بما يخدم أهدافه، وهي أن يحيا «هايْ لايْف» (حياةً مترفة) فيمتلك «فيللا وسيَّارة وامرأة.»[3] بل إنه يقرّ أنه ينتمي إلى طبقة عليها أن «ترث» طبقة طلبة مزروق، أي الإقطاع.[4] ومن أجلِ تحقيق أهدافه تلك، يُفكّر في عقد صفقة مع حُسني، «رجل الفدّانات المئة»، ويخطّط لسرقة كميّات من الغزل من الشركة التي يعمل فيها.

* * *

يعود زهير كامل من فرنسا بعد انتهائه من تحضير شهادة الدكتوراه فيفاجئ الجميع بترشيحه نفسه عام ١٩٥٠ عن حزب الوفد في إحدى دوائر القاهرة وبفوزه بأغلبيّة ساحقة، مع أنّه كان «أستاذاً جامعياً بالمعنى الدقيق، يُكرّس حياته للبحوث الأكاديميَّة، ولا حديثَ له خارج مضامينها...».[5] وحين تقوم ثورة يوليو، تُغْلَقُ دونه أبوابُ السياسة والجامعة. لكنّ الدكتور يرمينا بالمفاجأة الثانية في حياته «إذْ ينقضّ في مقالاته الجديدة على الوفد مُرْجِعاً إلى فَسَادِه كُلَّ فسادٍ نَخَرَ في عظْم الوطن.»[6] فيُعَيَّن صحفياً في إحدى الجرائدِ الكبرى وسُرعان ما يُعتبر قَلَمُهُ «من أقلام الثورة» ويُعهَدُ إليه بتحرير الصفحة الأدبيّة في تلك الجريدة. وعندما تُعلن ثورة يوليو عن سياستها الاشتراكية، ينكبّ زهير على دراسة النظرية الاشتراكية «ليؤيّدها عن علم وليحتفِظ لنفسه بمستواه ككاتِبٍ من كُتّابها الأوائل.»[7] وفي أعوام قلائل متتابعة يُترجم أربعة كتب عن الاشتراكية، ويصدر في النهاية «مؤلّفه المعروف» **اشتراكية هذا الوطن**.

* * *

يُنافح سليمان بهجت، وهو خرّيج كُلّيّة الزراعة، عن النظام النّاصري أملاً في أن يُعيَّن وكيلاً بوزارة الزراعة.[8] وتبيّن لنا **الباقي من الزمن** أنه يستغلّ صلاته بأخيه الضّابط، فيجني الأرباح من تأجير شققٍ مفروشة استأجرها خاليةً من عمارات الحراسة.[1]

* * *

يتمتّع محمد ناجي في رواية فتحي غانم **الرجل الذي فقد ظِلّه** بالمال والنفوذ نتيجة المقالات التي يكتبها أو يُسهم في إصدارها على صفحات مجلّة الأيّام ويكرّسها لمدح شهدي باشا. وعند حدوث الثورة يُستعاضُ عن «أستاذ الوصول»[2] برئيس تحرير جديد لا يقلّ عنه انتهازيّة. لكنّ محمّداً، على بُغضه للضباط الأحرار، يمتنع عن شتمهم في كتابته مخافة أن يُرسل رئيس التحرير الجديد مقاله إليهم «فيقطعون عنّي النقودَ»[!].[3] بل يذهب محمد إلى امتداح عبد النّاصر والإشادة بالحياد الإيجابي والقوميّة العربيّة[4]، متجنّباً ـ في الوقت عينه ـ مهاجمة الفرنسيّين والبريطانيّين الّذين يأمل أن ينتصروا على عبد الناصر في حال حصول مواجهة عسكريّة ضدّه عام ١٩٥٦.

ويمثّل يوسف عبد الحميد النّمط «الأحدث» للانتهازية الثقافية. فهو خلافاً لمحمد يعرف في «الثقافة» أموراً لا يعرفها، وهي أمورٌ يُعلي شهدي باشا من أهميّتها في الدفاع عن الوضع السائد قبل حصول ثورة ١٩٥٢:

> محمد ناجي يقدر يحارب الوفد... السَّعْديّين... القصر. لكن البلد مُوشْ دولْ بَسْ. البَلَد فيها دِلْوَقْتِ شيوعيّين واشتراكيين وإخوان مسلمين وعفاريت زرق ما كُنّاش بنسمع عنهم قبل الحرب [العالمية الثانية]، ولو سِبْنا محمد ناجي لوحده ح يِخْسَر المعركة. منطقهم تقنِع الأولاد اللّي في الجامعة. أنا عايِز واحِد زَيُّكْ يعرفْ يتكلّم بلغتهم...[5]

ويتولّى يوسف منصباً صحفيّاً بفضل جهود صديقيْه سعد وشَوْقي. لكنّه يطعنهما في الظهر حين يُخبر شهدي بنشاطهما الشيوعي فيسبّب «نقل» شوقي إلى عملٍ آخر. وأمّا عندما يستولي النّاصريّون على أجهزة السلطة فإنّ يوسف يشرع في استخدام اللغة والتعابير «الاشتراكية» طمعاً في حَصْد المنافع.

* * *

لا تعني الحقيقةُ بالنسبة لعبد الهادي النجّار في رواية غانم **زينب والعرش** إلاّ «مصلحته فقط ولا شيء غير مصلحته.»[6] فهو يُناصر

(١) المصدر السابق، ص ٢١٨.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٢٤، ٢٢٥، ٢١٢.
(٣) المصدر السابق، ص ٢٠٣ و٢٠٧.
(٤) المصدر السابق، ص ٢١٧.
(٥) نجيب محفوظ، **المرايا** (القاهرة: مكتبة مصر، ١٩٧٢)، ص ١٢٦.
(٦) المصدر السابق، ص ١٢٩.
(٧) المصدر السابق، ص ١٣٢.
(٨) نجيب محفوظ، **الباقي من الزمن ساعة** (القاهرة: مكتبة مصر، ١٩٨٢)، ص ٦٩.

(١) المصدر السابق، ص ٨٤.
(٢) فتحي غانم، **الرَّجل الذي فقد ظلّه** (القاهرة: روز اليوسف، ١٩٨٨، الجزء الثاني)، ص ٣٥.
(٣) المصدر السابق، ص ١١.
(٤) المصدر السابق، ص ١٣.
(٥) المصدر السابق، ص ٣١٤.
(٦) فتحي غانم، **زينب والعرش** (القاهرة: روز اليوسف، ١٩٨٨، الجزء الأوّل)، ص ١٢.

الانجليز على اعتبار «أن لا قيمة في مصر إلاّ لهم»، ويقف في الجامعة ضد الأغلبيّة الوفديّة ويؤيّد «[اسماعيل] صدقي الخائن الذي باع البلد للانجليز»،[1] ولا يلبث بعد سنوات أن يحوّل مجلّة العصر الجديد التي يُشرف على تحريرها إلى منبر يطرح مِنْ عَلَيْهِ أفكاراً تتعلّق بضرورة ربط سوق القطن في مصر بالتقنيّة الأمريكيّة. وأمّا حين ينجح الضبّاط الأحرار في انقلابهم عام ٥٢، فإنّ عبد الهادي يتصرّف كعميل مُزدوج: فهو يُرسل إلى جهاز الدولة الخبر تلوَ الخبر عن «أعداء» الثورة، لكنّه في الوقت ذاته «ينصح» رجال الدولة بألاّ «يبالغوا» في معاقبتهم. وحين يعلم بأنّ الدولة على وشك إصدار قانون «تطهير» بحق الصحافة غير الاشتراكيّة، يستبق ذلك القرار بسلسلة مقالات تُشيد بالدوريات الوطنيّة كالعروة الوُثقى لمحمد عبده وجمال الدين الأفغاني والتنكيت والتبكيت لعبدالله النديم واللّواء لمصطفى كامل ويُهاجم الدّوريات الحاليّة (بما فيها دوريّته هو بالذات!) أملاً في أن يبدو أمام قُرّائه «وكأنّهُ هو الّذي ساهم في صنع قرار تنظيم الصحافة.»[2] بل إنه يتطوّع «لخدمة» الثورة عبر منعها من الوقوع في شرك الشعارات والسَّفْسطة الثقافية. ولكنّه في حقيقة الأمر يؤمن بأن:

> الثورة قلبت نظاماً ليحلّ محله نظامٌ هو في حقيقته لانظامٌ، تختلطُ فيه القيم، وتختلط الطبقات كما يختلطُ الحابلُ بالنابل. وهذا الاختلاط يناسِبُه تماماً، ويُتيح له فُرصاً أكبر من غيره في الحركة والتفوّق والنفوذ. ولذلك فهو لا يُريد القضاء على هذا اللانظام... إن بقاءَ الفَوْضى وبقاءَ معارك الأفراد [هما] دعامة بقائه وعدم انكسارِه.[3]

* * *

«الدكتور» في رواية صنع الله ابراهيم **اللجنة** عضوٌ في إحدى «الجمعيات الوطنيّة المتطرّفة التي قامت بدورٍ بارز في الكفاح ضد الاستعمار الانجليزي»؛ بل إن معلومات الراوي تُثبت أنّه «قد ترك دراسته عام ١٩٤٧ وسارع إلى فلسطين على رأس كتيبةٍ من زملائه المتحمّسين حيثُ اشتركَ في الحرب ضد العصابات الصهيونية التي كانت تُقاتل باستماتة لإنشاء دولة اسرائيل.»[4] غير أنّ خرّيج الجامعة الفقير لا يلبث عقب نجاح الثورة أن يحصل ـ «بحكم قرابته لأحد الّذين آلت إليهم الأمور» ـ لأحد المنتجين السينمائيين على تصريحٍ بتصوير ثلاثة أفلام «كوميدية»(!) عن الجيش والطيران والأسطول مُقابل المشاركة في عائدها.[5] وما إن يُعلَن قانون التأميم عام ١٩٥٦ حتى يشتري الدكتور شركةً ويُصبح من دعاة القومية العربيّة، فيلقي خطاباً عشية إعلان الوحدة مع سوريّا يتّهم فيه الشيوعيّين بالخيانة لأنّهم وافقوا على تقسيم فلسطين؛ وفي مناسبة أخرى في الجزائر يتحدّث عن «الاشتراكية العربيّة»، ولعلّ تلك المناسبة كانت المرّة الأولى ـ في تقدير الرّاوي ـ التي أُطلقَ فيها على الدكتور لقبه هذا. وسُرعان ما يصبح رئيساً لشركة مقاولات تنتمي للقطاع العام. وفي عام ٦٧ يكتب مقالات يعزو فيها الهزيمة إلى ضعف الدعم السوفياتي للعرب. وبالرغم من موقفه هذا، يُكلّفه النظام الحاكم ببناء تحصينات دفاعية لحرب الاستنزاف التي يشنّها الجيش المصري بين عامي ٦٨ و٦٩ وهي تحصينات تكلّف عدة ملايين من الدولارات.[1] وفي هذه الفترة يتزوّج ابنة واحد من «ملوك البترول العرب» ويغدو صلة الوصل بين المستهلكين المحلّيين والمستثمرين الأجانب.[2]

II ـ لعلّ وجودَ عدد ضخم من المثقّفين الانتهازيّين في الرواية المصريّة الحديثة أن يعكس أمريْن: (أ) الحياة الثقافية في مصر عبد النّاصر نفسِها، وَ/أَوْ (ب) رفض الرّوائيين للانتهازيين واشمئزازهم منهم. وإنّي إخال أن النقطة الثانية شديدة الوضوح ولا تحتاج إلى أي إثبات؛ حَسْبُنا أن نرى إلى الإدانة المُفرطة للانتهازية الثقافية، وهي إدانة مُشبعةٌ بالنَّفَس الأخلاقي وتكادُ أن تخترق الرواية المصريّة (والعربيّة) بيْنَ دَفَّتَيْها.[3] وأمّا النقطة الأولى فأكثر إشكاليّة وإثارة للجدل لأنّها قد توهم بوجود تطابق ميكانيكيّ بين الواقع والأدب. وإنّي إذْ أنفي ذلك التطابق أُسارع إلى تأكيد اعتماد الأدب على الواقع ولا سيّما حين يتعلّق الأمر بالنماذج الإنسانيّة اليوميّة. ولا شكّ في أنّ النظر إلى الانتهازية الثقافية في سياقها الزمني والتاريخي المصري سوف يُساعدنا على إدراك واحد من أسباب انتشارها في الرواية. وفي هذا الصّدد أودّ التركيز على الحقائق الثلاث التالية:

أ ـ نموّ «طبقة جديدة» هي «خليطٌ غريب من البشر الذين لا يُنتجون شيئاً»، حسب كلمات الكاتب الناصري عِصْمت سيف الدولة، اجتمعوا حول الدولة المصريّة وفي أجهزتها «وتعاونوا على

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٢٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩.

(٤) صنع الله ابراهيم، **اللجنة** (بيروت: دار الكلمة، ١٩٨١)، ص ٤٦ ـ ٤٧. ولعلّ الجمعية المتطرّفة التي انتسب إليها الدكتور أن تكون «جمعية الإخوان المسلمين.»

(٥) المصدر السابق، ص ٥٦.

(١) المصدر السابق، ص ٥٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٨. يُخيّل إليّ أنّ الدكتور مزيجٌ من شخصيات مصريّة (بالدرجة الأولى) عاشت ولا تزال تعيش في عالمنا هذا. ومن تلك الشخصيات تقفز إلى ذهني الأسماء التالية: عثمان أحمد عثمان (رئيس «شركة المقاولين العرب»)، وعدنان الخاشقجي (المليونير السعودي)، ويوسف السباعي (الضابط والمثقّف).

(٣) إن إدانة الانتهازية عند المثقّفين مبثوثة في أشعار العرب ومقالاتهم كذلك، سواء منهم المصريون وغيرهم. راجع على سبيل المثال قصيدة صلاح عبد الصبور «هل عاد ذو الوجه الكئيب» وقصيدة نزار قباني «هوامش على دفتر النكسة». ويدعو نادر فرجاني زملاءه المثقّفين «الخبراء» إلى الكفّ عن تقديم الولاء للسلطات القامعة وأن يقتدوا بأبي حيّان التوحيدي الذي أحرق كتبه «احتجاجاً على مظالم عصره («عن إحراق الكُتب وعلاقات المثقّف بالسلطة،» المستقبل العربي، عدد ٥٧، ١٩٨٣).

امتصاص مواردها.» وهذا الخليط يضمّ قادة عسكريّين، وموظّفين بيروقراطيين، ورأسماليّين يقومون «بالأعمال الطُفَيْليَّة كالوساطة والسَّمْسَرَة»، و«مثقّفين انتهازيين قدّموا ما يملكون: أقلامهم وصُحُفهم وعقولهم في مقابل أنْ يشتركوا في مغانم الطبقة الجديدة»، وسادة الرّيف الّذين كانوا امتداداً للإقطاع بعد زواله. ويرى سيف الدولة أنّ سبب تكالب هذه «الطبقة» على أجهزة الدولة هو نشاط هذه الدولة في المجال الاقتصادي واختيارها الأسلوب الرأسمالي للتنمية.(١)

ب ـ اعتماد أكثر المثقّفين المصريّين والعرب عامّة على حكوماتهم التي تُسيطر على القسم الأعظم من سوق الثقافة (صحافةً، وإعلاماً، ودورَ نشر، وغير ذلك). وقد يدفع ذلك الاعتماد بكثير من المثقّفين إلى المساومة على مبادئهم وإلى اتخاذ مواقف أشدّ «ليونةً» تجاه حُكّامهم طمعاً في السّلامة والعيْش ولو ضمن الحدود الدنيا له.(٢)

ج ـ حاجة الدولة للمثقّفين الانتهازيين ولو لأجلٍ قصير. فالدولة تريد «مثقّفين» يخدمون مصالحها وينشرون سياساتها ويُبرّرون تحالفاتها المتقلّبة والمتنقّلة. على أنّ أدلّة كثيرة تشير إلى أنّ الدولة تستخدم المثقّفين الانتهازيين بكيفيّة لا تقلّ انتهازية؛ فهي (أي الدولة) ليست شديدة الثقة بولائهم لها ولا حتى بفاعليّتهم الدّائمة أو بتأثيرهم على مجموع المثقّفين الآخرين. وهذا ما يؤدّي إلى تشْنُّجٍ مستمرّ، ولكنْ خَفيّ، بين الدولة والانتهازيين، ينتهي عادة بانتصارها وبإحلالها مكانهم مثقّفين أقلّ تطلّباً وأشدّ ولاءً.(٣)

III ـ فيما يلي بعضُ الأسباب التي تدفع الأساتذة والطلّاب المتخرّجين والمحامين ـ وجميع هؤلاء يشكّلون غالبية الانتهازيين في الرواية المصريّة ـ إلى وضع أقلامهم واختصاصاتهم في خدمة الحُكّام.

أ ـ الفَقْر. ممّا لا شكّ فيه أنّ فقر يوسف النسبيّ ووعيَه بهذا الفقر سببان رئيسان في دفعه إلى طلب الشهرة والمركز بأيّ ثمن. فالحقّ أنّ ذكريات ماضيه الفقير تثقله. فهو يشعر بالانزعاج الشديد إذ يذكر أنّ النّاس كانوا يلقّبونه «بالأفندي الصغير» عندما كان طفلاً، في حين كانوا يُلقّبون صديقه مدحت بـ «البيك الصغير.»(١) ويشعر بالانزعاج كذلك إذْ يذكر أنّه ذهب إلى مدرسة صغيرة بينما ذهب مدحت إلى مدرسة أكبر وأشهر. بل إنّ ما يزيد في شعوره بالدونيّة الاجتماعيّة والنفسيّة أن حبيبتَه سعاد قد تزوّجت من طبيبٍ ثريّ، وأنّ أباه قد تزوّج من خادمة سُعاد؛ وممّا يزيد الطين بلّة أنّ تلك الخادمة قد كانت على علاقة بصديقه مدحت، وهو صديقٌ قد حسده يوسف على الدّوام.

أمّا عبد الهادي في **زينب والعرش** فقد كان يشعر «بحسرة وغيْظ» حين يراقب «أولاد الأعيان يهبطون من العربة داخلين إلى مدرسة طنطا الثانوية بينما هو يسيرُ على قدميه.»(٢) ويتفاقم شعوره ذاك بعد وفاة والده، فتستحيلُ عليه مصاريف الكُلّية ومواصلةُ العيش في القاهرة، فيترك الجامعة، ويعمل لاسماعيل صدقي، رجل الانجليز ورئيس الوزراء.(٣)

لكنّ المثالين السابقين يفضحان حقيقتين تتجلّيان عقب فوزهما بالمال والنفوذ. أولاهما أن ما دفعهما للانتهازية لم يكن الرغبة الخالصة في كفّ الفقر عن نفسيهما وعن عائلتيهما؛ وثانيتهما أنّ وضعهما المترف الجديد قد جعلهما أكثر تكالباً على المال. فيوسف يصدّ مبروكة وابنها (أي أخاه) ويعيدهما أدراجهما رغم تقاضيه مئة وخمسين جنيهاً شهرياً. وعبد الهادي يطلب من سكرتيرته ألاّ تأذن لأحدٍ من قريته طنطا بالدخول إلى مكتبه طلباً للمال.(٤) وثمّة مثال آخر على ما نذهب إليه يتجلّى في زهير كامل، وهو الذي يزعم أنّه ما كان ليمتدح النظام النّاصري لولا اقترابه (أي زهير) من حافة الإفلاس، بينما تبيّن **المرايا** أنّ زهيراً قد كتب بعد اغتنائِه رسالة قصيرة حوالي عام ١٩٦٠ يمتدح فيها كاتباً تافهاً «مقابل طاقم تحف عربيّة وألف جنيه» ـ وهو مُقابلٌ لا يهدف إلى سدّ الرمق وحده وإنما إلى الترف والتباهي.(٥)

ب ـ «غيرُنا ليسوا أَحْسَنَ مِنّا وَلسنا أحسنَ من غيرنا». يشعر كثير من الانتهازيين «بشرعيّة» مواقفهم ولا سيّما حين يرون إلى بقيّة أفراد المجتمع ـ ومن ضمن هؤلاء بعضُ المبدئيين والثوريّين وبعض مُدّعي المبدئيّة والثورِيّة ـ يحتالون للعيش الكريم بالتزلّف والمداهنة

---

(١) عصمت سيف الدولة، الأحزاب ومشكلة الديموقراطيّة في مصر (بيروت: دار المسيرة، لا تاريخ)، الصفحات ٩١ ـ ٩٨. وجديرٌ بالتوضيح أنّ ظاهرة «الانتهازية» عند المثقفين لا تنحصر في مصر عبد الناصر. وفي هذا الصدد يُبدي سعد الدين ابراهيم انزعاجه من «المثقفين العملاء» و«الخبراء» العرب الذين يقدّمون خدماتهم للدولة بحجّة خدمة هدف أسمى وأكثر ذَيْومة هو «الشعب»؛ راجع سعد الدين ابراهيم، «تجسير الفجوة بين المفكّرين وصانعي القرارات في الوطن العربي،» المستقبل العربي، العدد ٦٤، حزيران ١٩٨٤.

(٢) لمزيد من التفصيل أُحيل القارئ على الجزء الثاني من الفصل الرّابع من هذا الكتاب، وعنوانه: «الوظيفة». والّلافت للنظر أنّ هشام شرابي يرى أنّ المثقف العربي يبحث عن «أكثر من مجرّد العَيْش ويتطلّب مستوى لائقاً به وبعائلته»؛ راجع كتابه **مقدّمات لدراسة المجتمع العربي** (بيروت: الدار المتحدة للنشر، الطبعة الثالثة، ١٩٨٤)، ص ١٣٤.

(٣) تمثّل روايتا فتحي غانم **الرجل الذي فقد ظلّه** و**زينب والعرش** ـ كما سوف يتّضح لنا قريباً ـ ما يمكن أن نُسمّيه «تعاقب الانتهازيّين.»

(١) **الرجل**، الجزء الثاني، ص ١٥٧.

(٢) **زينب والعرش**، الجزء الأوّل، ص ١٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٣.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٤.

(٥) **المرايا**، ص ١٣٤.

والمساومة.[1] فزهير كامل يُقِرُّ بأنّ «انقلابه الاشتراكي» صعبُ التصديق، ولكنّه لا يأبه سواء صدّقه الآخرون أو لم يُصَدّقوه ما دام «أننا صِرْنا جميعاً مُمثِّلين»، أي كاذِبين.[2] كما أنّ يوسف في **الرّجل الذي فقد ظِلّه** يُبرّر انتهازيته بتذكير قارئه بأنّ الشيوعيِّيْن في الرواية لا يقلّان عنه انتهازيّة: «فشَوْقي يكره ناجي لكنّه يعمل معه»، وسعد يزعم أنّه شيوعي، لكنّ هدفه الحقيقي هو أن يصير «وكيلاً للنيابة ليَقبضَ على الشّيُوعيّين... [!]»[3]

وللإنصاف نقول إنّ في اتهامات الانتهازيين لكثير من المثقفين قدراً من الصحّة. فلنذكُر على سبيل المثال أنّ سعداً يحرق أوراقه القديمة ـ ومن بينها مقالة كان قد نشرها في الإشادة بالدستور السوفياتي ـ ما إنْ يُعيَّنُ مُعَاوناً للنيابة، وأنّه يُحجم عن ارتياد مقهى ميخالوفتش بحجّة أن المكان «مشبوهٌ ويتردّد عليه الشُّبانُ الشيوعيّون»؛[4] ولهذه الأسباب يعتبره شوقي «مُجَرد وصوليّ سارَ مع الشيوعيّين لأنّه فقير فلمّا انْفَتَحَ المجالُ أمامه ليصبح غنيّاً هجرَ الشيوعيّة ولم يفكّر إلاّ في نفسه.» ولنذكُرْ أيضاً أنّ شوقي الّذي سمعناه للتوّ يدين سعداً بالانتهازية يدفعه رُعب الاعتقال والإفقار إلى التبرّؤ أمام يوسف من ارتباطاته بالشيوعيّين وإلى التأكيد بأنّه «يكرههم ويسخر منهم ويتهمهم بالغباء.»[5]

غير أنّ من الإنصاف كذلك أنْ نُصِرّ على أنّ مزاعم يوسف (عن انتهازيّة الجميع بدون استثناء) تنقضها روايات مصريّة كثيرة تُبرز مثقّفين يرفضون المساومة مع السلطة الجائرة ويلجأون إلى الصّراع معها أو إلى منفاهم الدّاخلي.[6] لكنّني أودّ أيضاً أن أسلّط الضوء على الفرق بين «انتهازية» شوقي وانتهازيّة يوسف. فالأولى تهدف بحقّ إلى مجرّد إبقاء صاحبها على قيد الحياة، وأمّا الثانية فتطمح إلى النفوذ والسيطرة وتحطيم الآخرين. إنّ فشل شوقي في تحقيق برنامجه السياسي ـ أي تحويل أسلحة العدو (المجلّة والمال) إلى صدر ذلك العدوّ ـ واهتمامه ببقائه على قيْد الحياة لا يعكسان انتهازيّته بقدر ما يبرزان الضعفَ البشري عامّة وسَذاجة بعض التكتيكات الثوريّة المتذاكِيَةِ خاصّةً.

ج ـ عبث المقاومة. قد يعزو بعضُ المثقّفين انتهازيّتهم إلى عُقم التصدّي لجبروت الدولة. وقد يربطون حجّتهم هذه بحجّة أُخرى مفادها أنّ النظام الناصري هو، في نهاية المطاف، أفضلُ الشرور الثلاثة. يقول زهير كامل في هذا الصّدَد:

> [إنّ حركة الضبّاط الأحرار] حركة مباركة مَنَعَتْ بقوّتها الذاتية اشتعالَ ثورة لاحت مخالبها في الأفق... أعترفُ لك بأنّني لستُ ثورياً، فكما لا أوافقُ على رجعيّة الإخوان، فإني لا أُوافق أيضاً على ثوريّة الشيوعيين، وأُومن بالإصلاح الرّزين الذي تتأثرُ [الثورة] خُطاه...[1]

غير أننا هنا أيضاً إزاءَ منطقٍ منقوص وغير مقنع. فلماذا ينبغي على المرء أن يُقاوم الثورة ما دام يؤمن حقاً بأنّها الخيارُ الأفضل؟ وهل من المقنع لمن يؤمن بذلك حقّاً أن يُفضّل الاحتلال الأجنبيّ على حكم الضباط الأحرار كما فعل زُهير؟

IV ـ تنحي روايات التجربة الناصرية باللائمة على الدولة في تشجيع الانتهازيّة ودُرُوب «الخلاص الفردي». فالثورة نفسها هي التي تُعيِّن ـ حسب **المرايا** ـ الانتهازيّين في مراكز هامّة من مراكز البرقراطيّة الثقافيّة المصريّة على حساب «الثوريين الحقيقيين» كما يقول عزمي شاكر. وأمّا سرحان فهو «ممثِّل الثورة» الرسمي والمعترف به رغم كونه يسيءُ تمثيلَها على نحو ما توحي به **ميرامار**. وأمّا حسن في **السّمان والخريف**، فإنّه يتكلّم نيابة عن الثورة وفي الإذاعة التي تُشرف عليها الدولة. وأمّا زهير في **المرايا** فيُعتبَر «من أقلام الثورة» حَسب الإعلام الرسمي نفسه. وأمّا سليمان في **الباقي من الزمن ساعة** فمحسوبٌ على أخيه الضابط. وأمّا الدكتور في **اللجنة** فإن «الحظ يبتسم له، عندما قامت الثورة، بحكم قرابته لأحد الّذين آلت إليهم الأُمور». وأمّا رؤوف في **اللصّ والكلاب** فإنّه يهدّد باستدعاء بوليس الدولة النّاصريّة لتحمي مصالحه من عُدوان تلميذه «الثوري» عليه. وفي **زينب والعرش** يُصارح «المسؤولون» في الدولة دياباً النّاصريَّ بأنّ الإبقاء على الانتهازي الفاسد عبد الهادي النجّار رئيساً لتحرير المجلّة ضرورةٌ قوميّة ومحليّة.

إنّ اللائحة تطولُ لتؤكّد أمراً واحداً هو أنّ الدولة ليست ضحيّة ظلم واضطهاد يمارسه ضدّها أبناؤها بغير وجهِ حقّ، بل إنّها شريكةٌ في تثبيت الانتهازيّين و«الخونة» وحمايتهم وتشجيعهم. والمفارقة التي

---

(١) الّلافت للنّظر أنّ شعوراً كهذا يثبتهُ رأيُ هشام شرابي مفاده أنّ المساومة (والمساومة نوعٌ طفيفٌ من الانتهازيّة) قدرُ أكثر المثقّفين العرب: «فالمثقّف، كي يحمي نفسه من الحرمان، من الهجرة، من السجن، يضطرّ أحياناً إلى المساومة. وفي مجتمعنا العربي لا أمان للمثقّف ولا (مستقبل) له إلاّ إذا سايَرَ وساوَمَ. ففي المجتمع العربي لا «رأيَ عاماً» يلجأ إليه إذا قرّر أن يتمسّك بموقفه وأن يقول كلمته صريحة ومن دون خَوْف. وهو إذا رفض المساومة، فليس أمامه إلاّ الصمت (أن يقبلَ بالنفي الفكري) أو الثورة (أن يلجأ إلى العُنف). وبما أن معظم المثقّفين لا يقدرون على العنف، وبما أنّهم يُريدون التمتّع بالحياة لا التضحية بها، فهم غالباً ما يختارون طريق المساومة والمسايرة ويرفضون طريقَ العنف والثورة.» (شرابي، المصدر نفسه، ص ١٣٥).

(٢) **المرايا**، ص ١٣٣.

(٣) **الرجل**، الجزء الثاني، ص ٢٤٢.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٤٩.

(٥) المصدر السابق، الجزء الأوّل، ص ١٨٠ ـ ١٨١.

(٦) نذكر من بين الرافضين حلمي حمادة في **الكرنك**، وعبد الوهّاب اسماعيل في **المرايا**، وفوزي في **ميرامار**، والرّاوي في **نجمة أغسطس** لابراهيم. ومن بين المثقّفين المتخلّين عن السياسة، نشاطاً أو كتابة، خيبةً أو تقزّزاً، نذكر عيسى الدبّاغ في **السمّان والخريف**، ودياباً في **زينب والعرش**، وغيرهما.

(١) **المرايا**، ص ١٣٠.

يأسف بعض الشخصيات الروائيّة لها أنّ ذلك يحصل فيها الدولة تقوم بإنجازات ثوريّة حقّاً. ولعلّ أفضل ما يُعبّر عن هذا الوضع المعقّد الحوارُ التالي في **اللصّ والكلاب** بين اثنين من روّاد مقهى شعبيّ:

- المأساة الحقيقيّة هي أنّ عَدُوّنا هو صديقُنا في الوقت نفسه.
- أبداً. المأساة الحقيقيّة هي أن صديقَنا هو عَدُوّنا.(١)

V - فيما يلي بعضُ الوسائل التي تستخدمها الشخصيّات الروائيّة الانتهازيّة للتقرّب من المؤسّسة الناصرية أو ولوجها:

أ - العِلمُ والخبرة. يَكتسِبُ سرحان البحيري بفضل علمِهِ قوّةً سياسيّة واقتصاديّة. ولنذكر هَهنا أنّ بُغض حُسني علام له لا يعودُ لكون الثورة قد أمّنت فدّانات سرحان العشرة بينما وضعت فدّاناته هو المئة «على كفّ عفريت» فحسب، بل كذلك لأنّ حسني ليس «مثقفاً» وليس حائزاً على «درجة أكاديميّة» مثله.(٢)

إنّ أسبقيّة الثقافة/العلم على الاقتصاد عند «ذات العين الزرقاء» (حَبيبة حُسني) تعودُ في جانب أساسي منها، حسب اعتقادي، إلى القيود التي وضعتها الثورة أمام الملكيّة الخاصّة، وتعود في جانب آخر إلى حاجة النظام الماسّة لنشر ايديولوجيتّه الاشتراكيّة بين صفوف المثقّفين والجماهير. إنّ سياسة التعليم العالي المجّاني التي انتهجها الرئيس عبد النّاصر قد جَعَلَت من «أبناء السَفَلَة» (أي الفقراء في تعبير حُسني المبتذل والتحقيري) قوّةً قادرة على تحدّي بقايا البورجوازيّة الكبيرة.(٣)وتبعاً لذلك كُلّه فإنّ علاقة سرحان بالنظام الناصري تمثّل حاجة الواحد منهما للآخر. صحيح أنّ الدولة تنظر إلى المثقّفين الانتهازيّين من عَلِ، لكنّها غالباً ما تعترفُ بثقافتهم أو بخبرتهم أو بالخطر الكامن الذي يشكّلونه إن هي أساءت معاملتهم؛ وقد يذكر القارئ أنّ «المسؤولين» يحذّرون دياباً في **زينب والعرش** من طرد عبد الهادي النجّار ذي الخبرة والشهرة على المستويين القومي والعالمي. إنّه، إذن، لن يكونَ من التعسّف في شيء أن نزعم أنّ اعتماد السلطة والانتهازي الواحد منهما على الآخر يُثبت رأياً فُوكُوويّاً أصيلاً في السلطة والثقافة إجمالاً، مفاده «أنّه ليسَ من الممكن للقوّة أنْ تُمَارَسَ بغير معرفة؛ [كما أنّه] من المستحيل ألاّ تولّد المعرفةُ قوةً.»(٤)

ب - معرفة الخطاب الثوري. فسرحان البحيري يستغلّ «خطاب» الثورة المصريّة لأغراضه الشخصيّة. وهذا ما يكشفه تلاعبه بكلمة «الملايين» في الحوار التالي (وهو حوار خِلوٌ من المُخاطِب والمُخَاطَب، لكنّي أعتقد أنّه يجري بين سرحان وعلي بكير، أو بين الأوّل وواحدٍ من نزلاء فندق ميرامار) «فالملايين» في هذا الحوار القصير قد تعني الجماهير وقد تعني ملايين الجُنيهات:

- لقد أغلقت [الثورة] من الأبواب بقَدْرِ ما فَتَحَت.
- تَذَكّر الملايين ثمّ احكُمْ من جَديد.(١)

ولنا في اعتداد يوسف بأصله الاجتماعي الوضيع في **الرّجل الذي فقد ظلّه** مثالٌ آخر. فهو يؤكّد لنفسه أنّ ذلك الاعتداد لا مندوحة أن يُجَمّل صورته في عين ضابط المخابرات الذي جاء يسأله عن مبروكة، زوج أبيه التي تحوّلت إلى مومس:

> أنا شفت الفرق اللي احنا عايشين فيه. شُفت واحده ريّ مبروكة تبقى ريري [وهذا لقبُها مومساً] علشان تعرف تعيش... دي موش فضيحة، ده شرَف [لي]. . . . مبروكة ما تهمّش دلوقتِ، المهم ان ما فيش غيرها يتبهدل زَيّها[!].(٢)

ج - تسريب معلومات سرّيّة للنظام. ففي **زينب والعرش**، يُثمن جهاز المباحث العامّة علاقته بعبد الهادي النجّار تثميناً عالياً. فيُقدّم له الحماية «وفوقها كلّ ما يطلبه من ولّاعات وأربطة عنق باريسيّة وعلب سيجار هافانا وشيكولاته كادبوري وتفّاح أمريكاني وأجهزة تسجيل وأسطوانات لموسيقى الجاز والسمفونيات وصوف انجليزي دورمي فاخر، وأهمّ من ذلك كُلّه حريّة شخصيّة واسعة له بأن يلعب البوكر ويتّخذ العشيقات بلا حرج أو حَذر» مُقابل معلومات قيّمة يقدّمها لذلك الجهاز عن بعض السياسيّين المعارضين.(٣)

د - القرابةُ. فسليمان في **الباقي من الزمن ساعة** والدكتور في **اللّجنة** يَلِجَان المؤسّسة الناصريّة بفضل قرابتهما لأشخاص يعملون فيها. ولعلّ رابطة الدم أن تكوُن أبرز الروابط التي تتيح للمثقّف الانتهازي تقديم نفسه لمن «آلت إليهم الأمور» في البلاد. وهي - أي رابطة الدم - من حيث وظيفتها تلك أكثرُ شيوعاً في رواية التجربة الناصريّة من رابطة «الشلّة» أو «الدفعة» أو غيرهما من أنماط تواصل النخب السّياسيّة بعضها بالبعض الآخر.(٤)

هـ - ماضي الانتهازي الوطنيُّ. فالدكتور في **اللّجنة** مثلاً حارب الانجليز في مصر والصهاينة في فلسطين. وقد لا نُجَافي الحقّ إذا

---

(١) **اللصّ**، ص ٦١.

(٢) **ميرامار**، ص ٩٤.

(٣) وفي هذا المجال نتذكّر قول فتحي رضوان في أهميّة الامتيازات التعليميّة الجديدة التي مُنحت للفقراء المصريّين: «فكلما ازداد حظّهم من الثقافة، زادت مكانتهم وارتفع قدرهم... وكان إحساس الطبقات العاملة أنّ الثقافة أصبحت خطّاً من خطوط دفاعهم [في مواجهة] أبناء الطبقات القديمة الذين يريدون استعادة امتيازاتهم الضائعة...» («المثقّفون يتّهمون المثقّفين»، الهلال، كانون الثاني ١٩٨٣)، ص ٥٧.

(٤) Michel Foucault, Power - Knowledge: Selected Interviews and Other Writings (1972 - 1977), trans Colin Gordon, Leo Marshal, John Mepham, and KateSoper:ed. Colin Gordon (New York: Panthe.on Books, 1980), p. 52.

(١) **ميرامار**، ص ٢٢٥.

(٢) **الرجل**، الجزء الثاني، ص ٣٧٨ و٣٨٠.

(٣) **زينب**، الجزء الأول، ص ٩٩. وقد أخبرني أديب صديق أنّ ضابطاً من رجال الأمن رجا الكتّاب في واحدٍ من اجتماعاتهم الاتّحاديّة أن يكفُّوا عن إغراقه بالتقارير السياسيّة والشخصيّة المتعلّقة بالمثقّفين الآخرين لأنّ لديه من «المخبرين المثقّفين» ما يكفي!

(٤) يُعرّف Robert Springborg «الشلّة» بأنّها «مجموعة صغيرة من الأصدقاء يعملون معاً لتحقيق أهداف فرديّة، ولا سيّما ترقيات مهنيّة في الحقل المدني أو العسكري أو القطاع العام أو في مجال النخبة السياسيّة... وقد تتكوّن الشلل من أشخاص سبق أن عرف واحدهم الآخر في الدّفعات [والدُّفعة صفّ تخرّج تلاميذه من دائرة أو معهد تقنيّ أو عسكريّ، أو مدرسة ثانويّة]، أو في منظّمات رسميّة، أو عبر علاقات وظيفيّة...

توقّعنا أن يكون ماضيه الوطني قد شَرَّعَ، في أعين بعض الناس، هجومَه على الشيوعيّين بسبب موافقتهم على قرار تقسيم فلسطين كما شرّع في أعين ذلك البعض دَعْوَته إلى الوحدة العربيّة. فالأرجح أنّ قلّةً من النّاس فحسب، ومن بينهم الرّاوي والقارئ، تعلم علم اليقين أنّ ذلك الهجوم وتلك الدعوة لم يحرّكهما سوى طمعِ الدكتور في توسيع اتصالاته الماليّة والتجاريّة إلى باقي الأقطار العربيّة ورغبته في توثيق التعاون التجاري بين العرب والغرب المعادي للشيوعية.

وإنّنا نذكر كذلك أنّ رؤوفاً في **اللصّ والكلاب** قد كان مُحَرّراً في جريدة النذير المبشّرة بالثورة، وأنّه قد تلقّى التدريب العسكري ودرّب بدوره شبّاناً فقراء استعداداً للثورة. صحيح أنّ الرواية لا تُلمح إلى وجود أيّ صلةٍ بين ماضي رؤوف الثوري وحاضره المترف، غير أنّ من المنطقي أن نفترضَ احتمالَ أن يكون رؤوف قد استغلّ ماضيه النضالي للتقرّب من جهاز الثورة الإعلامي.

ولأضفْ ملاحظةً أخيرة على هذه النقطة، فأؤكّد أنّ أيّاً منْ **اللجنة** أو **اللصّ والكلاب** لا توحي للقارئ بالشكّ في صحّة ثوريّة الدكتور ورؤوف قبل نجاح الثورة.

VI ـ لا بدّ من كلمة أخيرة عن المخاطر التي يسبّبها المثقفون الانتهازيّون، وهي مخاطر ثلاثة، على ما توحي به روايات التجربة النّاصريّة. أوّلها خَطَرٌ يهدّد عمق النظامَ الذي يزعم الانتهازيُّ الدّفاع عنه. فابراهيم خيرت يُصَرّح لعيسى بأنّ «رجالنا» (أي الموظّفين الوفديّين الّذين حافظوا على مراكزهم داخل المؤسّسة الناصريّة) «منتشرون في مجالس إدارات الشركات»[1]. ويوشك زهير كامل أن «يعلن ارتداده» عن تملّقه للنظام في ظرفيْن اثنيْن:

> أولهما الاعتداء الثلاثي عام ٥٦، والآخر النكسة عام ٦٧. ففي كُلّ مرّة خُيّلَ إليه أنّ الثورة صُفِّيَتْ وانتهت، فتوثّب للعمل لمستقبله من جديد. ووضح لي [والكلام للراوي] في المرّتيْن مدى ما ينطوي عليه من انتهازيّة وزيف، بالرغم من أنّه يدين للثورة بجاهه وماله.[2]

أمّا الخطر الثاني والأهمّ فهو ذاك الموجّه إلى الوطن بأجمعه. فابراهيم على سبيل المثال يتمنّى أن تخسر مصر في حرب المواجهة عام ٥٦ أثناء العدوان الثلاثي:

> سوف تكون هزيمة سطحيّة تُخَلِّصُنا من جيْش الاحتلال الجديد [أي النظام النّاصري]، ثم تُجبر اسرائيل على التراجع وربّما الاكتفاء بالاستيلاء على سيناء وعقد صلح مع العرب. ثم تتدخّل انجلترا وفرنسا لتسوية المسائل المُعَلّقة بالشرق الأوسط وإعادة الحال في مصر إلى طبيعتها.[3]

والقارئ يجد رغبة شرّيرة مماثلة عند محمد ناجي في **الرجل الذي فقد ظله** إذ يُعبّر عن تَوْقه لرؤية الانجليز والفرنسيّين يهزمون مصر عام ١٩٥٦ ويحتلّونها بُغيَةَ إعادة حكم «العقلاء» مكان حكم «الغَوْغاء.»![1]

ولعلّنا لن نجد تمثيلاً للأخطار التي يشكّلها وجودُ المثقّفين الانتهازيّين للنظام الناصري والوطنِ معاً أفضل من ذلك الذي يخطّه بإبداع فائق نجيب محفوظ في **ميرامار**. إن استغلال سرحان للفلاّحة الفقيرة (وهي رمزٌ للثورة والوطن، فضلاً عن كونها رمزاً لضحيّة المجتمع الذكوريّ)، يتوازى مع استغلاله الخطاب الثوري خدمة لأغراضه الخاصّة. غير أنّني أزعم أنّ ذينك الشكلين من الاستغلال ينبغي أن يوضعا جنباً إلى جنب مع سعي السلطة لاستئصال الثوريّين «الحقيقيّين» (أي خليّة فوزي). وفي هذا المجال لا بدّ من الإشارة إلى ترابط كلتا المحاولتين الساعيتيْن لمحقِ الثورة؛ وحسبنا أن نشير إلى رغبة سرحان في استغلال صلته بأخي منصور (ضابط البوليس) لأهداف ماديّة بحتة لا تتطابق وأهداف الثورة المعلنة.[2]

أمّا الخطر الثالث والأخير الذي يشكّله الانتهازيّون فهو خطر يُحدِقُ «بالمثقّفين الآخرين.» فالمثقّف الانتهازي قد يستخدم القوّة والنفوذ اللّذين أضفتهما عليه الدولة ضد خصومه أو زملائه المثقّفين. وهذا ما سوف أُعالجه بالتفصيل في الفصل الرابع من هذا الكتاب، ولا سيّما حين أتعرّض لروايتي غانم السالفتي الذكر.

ب ـ الهُروبيّ أو المتراجِع

أُشير بادئ ذي بدء إلى أنّ مصطلح «الهُروبيّ» (the escapist) أو «المتراجع» (the retreater) لا يحمل في هذا الكتاب أيّ دلالة سَلْبِيّةٍ أو تحقيريّة. وإنّي إذْ لا أُقلّل من أهميّة استثناءات مثقّفة تبزغ في سماء وطننا العربي، وتحمل دمّها على كَفّها، وتضع أرواحها وأجسادَها على مذبح مبادئها، فإنّي أُحسّ بأنّ الهروبيّة قد أضْحَتْ عند البعض موقفاً سياسيّاً وأخلاقياً يستحقُّ (أو يجب أن يستحقّ) جزءاً من احترامنا، ولا سيّما مع استفحال ظاهرة الانتهازية الثقافية التي أسلفنا الحديث عنها.

وأعرض في هذا القسم نماذج روائيّة اختارت هجرانَ السياسة إبّان الحكم الناصري أو أُجبرت على ذلك الفعل. ومن ثَمّ أحلّل تباعاً بعضَ الأسباب التي تقدّمها تلك النماذج تبريراً لهروبيّتها، كما أعرض دور الدولة في تشجيع هذه الهروبيّة، وتصوّر الهروبيّين لأنفسهم، وعذابهم الممضّ.

I ـ فيما يلي بعض النماذج الثقافيّة الهروبيّة في روايات التجربة

(١) السّمان، ص ٦٤.
(٢) المرايا، ص ١٣٤.
(٣) السّمان، ص ١٣٧.

(١) الرجل، الجزء الثاني، ص ١١.
(٢) ميرامار، ص ٢٢١.

الناصريّة. يُدْمن عيسى، وهو وفدي سابقٌ في **السمّان والخريف** لمحفوظ، الجنسَ والكحول والقمار عقب انقلاب ١٩٥٢، غير أنه لا يلبث أن يتّخذ موقفاً أكثر إيجابيّة من النظام النّاصري بعد توالي الأحداث السياسية بين عامي ١٩٥٥ و١٩٥٦. وأمّا رفيقُه سمير فإنّه يرفض قبول الوضع السياسي الجديد، ويغرقُ في التصوّف. وفي **الشحّاذ** لمحفوظ، يُطلّق مصطفى العمل السياسي ويشرع في كتابة قصص خفيفة ومسليّة إرضاء «للرأي العام»؛ في حين يلجأ عمر الحمزاوي إلى التوحّد وإلى الشعر الصوفيّ بعد أن فشل «الطعام الجيّد» و «الخمر الجيّدة» وفشلت المرأة في تسكين حدّة شعوره بالذّنْب عقب تخلّيه عن الكفاح السياسي الّذي كان يخوضه برفقة عثمان خليل القابع في السجن. وأمّا أبطال **ثرثرة فوق النيل** لمحفوظ كذلك فقد دفعهم اغترابهم عن قيم المجتمع والمؤسّسة الحاكمة وحرمانُهم من المشاركة في صناعة القرار إلى الاجتماع في عَوّامة حيث يُغرقون مشاكلهم وهمومهم في المخدّرات والأحاديث العبثيّة والجنس والتنظير العقيم عن الفن. ونجد أنّ دياباً في **زينب والعرش** لغانم يستقيل من مجلس إدارة الجريدة النّاصرية بعد أن استعصى عليه وضعُ أخلاقيّاتِهِ موضعَ التنفيذ وبعد أن عجز عن فهم منطق «مَسؤولي» النظام الّذي يمثّله، فيحاول أن يجد عزاءَه في الدين، والدومينو، والنقاشات «الصبيانية». وفي **ميرامار** يعتزل عامر وجدي الصحافة بعد أن غزاها «المهرّجون»، فينزوي في «بانسيون» صغير مُبدياً اهتماماً متزايداً بالدّين والتأمّل الوجداني. وأمّا مصطفى الشيوعي في رواية **السؤال** لغالب هلسا فإنّه يقضي أكثر أيّامه عقب الإفراج عنه نائماً، أو حالماً، أو مُجامِعاً، وذلك قبل عقده العَزْم على مواصلة النشاط السياسي الحِزْبيّ بعد طول انقطاع.

II ـ تقدّم الشخصيات الروائية المثقّفة أسباباً مختلفة في هجرانها العمل السياسي أو الكتابة السياسيّة. ولقد سبق أن بيّنا أنّ كلاًّ من عيسى وسمير في **السمّان**، وهما وفديان سابقان، قد وجدا صعوبةً كبيرةً بحكم وفديّتهما في تقبّل قيم النظام النّاصري الجديد والتحوّلات الاجتماعية التي أحْدَثته. ويُضيف المثقّفون الهرويّون الآخرون إلى ذلك مبرّريْن آخريْن: (أ) تلكّؤهم في مواصلة الكفاح حين يكون النظام النّاصري ـ حسب زعمهم ـ قد حقّق كُلَّ الأهدافِ المنشودة؛ و(ب) اعتراف البعض منهم بصعوبة معارضة نظام قويّ كالنظام النّاصري أو عقم معارضتهم له. وهكَذا نجد مصطفى في **الشحّاذ** يحاول إقناع نفسه بضرورة اهتمام المرء «بأعماله الخاصّة» ما دامت الدولة «تحتضن المبادئَ التقدميّة وتطبّقها»،[1] في حين يتحدّث عمر عن عقم النشاط السياسي في ظلّ نظام استطاع أن ينْجز الأحلام المنشودة.[2]

غير أنّني أرى أنّ كلا المثقفيْن يؤكّد ـ بالقول أو بالفعل ـ حُكْمَ عثمان خليل على الثورة النّاصريّة، وهو حكمٌ يخلص إلى أنّ تلك الثورة ناقصة وأنّها بالتالي في حاجة إلى الاستكمال. لاحظْ أنّ عمر ينتقد الثورة على نحوٍ غير مباشر حين يأسف لكونها قد فشلت في أن تمسّ رؤوس أموال أُناس مثله، أي البورجوازية الصغيرة.[1] لاحظْ كذلك أنّ استغراق مصطفى في الترفيه عن الجماهير بَبَيْعها «اللُّبَّ والفُشار عن طريقِ الصُّحف والإذاعة والتلفزيون»[2] دليلٌ ـ من وجهة نظر المؤلّف الضمنيّ (implied author) ومصطفى نفسه على الأقلّ ـ على سطحيّة الإعلام النّاصري.[3] إنّ الرغبة في عدم «تجاهل الجماهير» منطقٌ طالما استعمله الاشتراكيون؛ لكنّ مصطفى والنظام الذي يمثّله مصطفى إعلامياً يلويانه لدغدغة أوْضَعِ الغرائز عند «العامّة». وتبعاً لذلك نقول إن الإطراء الذي يُسبغه عمر ومصطفى على الثورة لا يهدف إلاّ إلى تبرير ثلاث خطوات مترابطة (وإنْ كانت لا تُقنع عثمان)، هي: تخلّيهما عن الكفاح السياسي (وهذا ما سوف نبحثه للتوّ)، وجريهما وراء المكاسِب المادّيّة، وتكفيرُ عن الذنب الذي يشعران به بسبب سجن عثمان دونَهُما.

* * *

يرثي عمر في **الشحّاذ** لصِغَر المنظمة التي كان الأصدقاء الثلاثة (عمر ومصطفى وعثمان) أعضاء فيها قبل الثورة. ثم يتطرّق إلى الصعوبات التي واجهوها وواجهتها جميعُ الأنشطة الثورية في الأربعينات ـ وهي حقبةٌ يؤكّد أنها اتّسمت «بالعُنف والإرهاب.»[4] إلاّ أن بمقدور القارئ أن يستند إلى أمرين: (أ) اعتقال البوليس النّاصري لعثمان و(ب) «تشتّت» خليّته الجديدة (على نحو ما يرمز إليه تجاهل عمر ومصطفى الكفاحَ السياسي) فيقولَ إنّ تحليل عمر لفترة الأربعينات قد ينطبق على فترة ما بعد ١٩٥٢. إنّ القارئ ليشعر أنّ المؤلّف الضِّمْنيّ يُسقط «الماضي» على «الحاضر»، فكأنّه بإسقاطه هذا يوحي بالطبيعة القمعيّة للمؤسّسة الناصريّة وبوهن المعارضة اليساريّة لها.[5] وتبعاً لذلك فإنّ الرواية توحي بأنّ ما قد بَرَّر هرويّة عُمر في الماضي يُبرّر هرويّته في الحاضر.

إنّ طبيعة النظام النّاصري القمعيّة ووهَن المعارضة اليساريّة المصريّة يشكّلان السببيْن الرئيسيْن لهرويّة مصطفى المؤقّتة في **السؤال** كذلك. فما إن يُفرَج عنه حتى يجد رفاقه الشيوعيين

(١) نجيب محفوظ، **الشحّاذ** القاهرة: مكتبة مصر، ١٩٦٥)، ص ١١١.
(٢) المصدر السابق، ص ١٥٢.

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٢.
(٣) المصدر السابق، ص ٤٥.
(٤) المصدر السابق، ص ١٥٠.
(٥) راجع أيضاً تحليلي في الفصل الثالث من هذا الكتاب لرواية **ميرامار** حيث أزعم أنّ «الثورة الحقيقيّة التي طَعَنَها سعد زغلول في المهد» شبيهة بالحركة اليساريّة (ممثّلة بخليّة فوزي السّريّة) التي استأصلها عبد النّاصر.

يتعرّضون للمراقبة والهجوم المتواصلين. وثمّة «سفّاح» ينصّب نفسه مُدافعاً عن الإسلام والأخلاق والقومية العربية والاشتراكية، يقتل الشيوعيين والشيوعيات بعد أن يحصي الأوّلين ويُخَوْزِق الأُخريات؛ ولا تلبث الرواية أن تُلمح إلى أنّ ذلك السفّاح ليس إلّا الملازم الجلّاد الذي كان يُعذّب الشيوعيين في السجن.[1] إنّ خوف مصطفى من سفّاح السُّلْطة يتفاقم مع الاستمرار في سجن المئات من أعضاء الحزب الشيوعي المصري الذي يبدو أن مصطفى قد سبق له أن انتمى إليه. بل إنّ هروبيّة مصطفى (المؤقّتة) تجد مبرّراً آخر لها في نزعَتي الطفوليّة والتقسيميّة (الانشقاقيّة) اللتين تطبعان أولئك الشيوعيين الماويّين (كوليد ومنال) الّذين يبقَوْن طُلَقاء بسبب نشاطهم السّري وانعزالهم عن الجماهير.

III ـ يشعر عدد من الشخصيات الروائية، كمصطفى في **السؤال** لغالب هلسا وسعيد وعبّاس في **نجمة أغسطس** لصنع الله ابراهيم، بخطر استئناف أيّ نشاط سياسي بعد أن سمعوا حكايات مرعبة عن مصير غيرهم من المناضلين السياسيّين. غير أنّ الدولة تتحمّل مسؤولية أكثر مباشرة في هروب المثقّف من ميدان السياسة. خُذ مثلاً دور إعْلامها في **الشحّاذ**. إنّ هذا الإعلام هو الذي يشجّع المثقفين على كتابة «القصص الخفيفة» التي «تُسَلّي» الجماهير، بدلَ أن يحفزهم على اتّباع ما تُمليه مبادئ الاشتراكية على حَقْلَي التربية والتعليم، وتحديداً: «تنوير» النّاس عن أعدائهم أو حلفائهم القوميّين والطبقيّين و«إرشادهم» إلى مختلف أساليب النضال. وقد يكونُ من المفيد هنا أن نشير إلى أنّ نقد مؤلّف **الشحّاذ** الضِّمْني للإعلام الذي تشرف عليه الدولة النّاصرية يُذكّر بخيبة أمل الكثير من المثقّفين المصريين في ذلك الإعلام. فعلي الرّاعي على سبيل المثال يأسف لكون الثورة قد رأت في الثقافة «بضاعةً استهلاكيّة وظيفَتُها تزجِيَة وقت الفراغ والترفيه عن المواطنين من أيْسر السُّبُل وكَسْبِ رِضاهم بأيّة وسيلة.»[2] ويرى أنّ الدولة قد شجّعت أجهزة الإعلام (الراديو والتلفزيون) على حساب «أجهزة الثقافة» (كالمسرح ودور النشر)، فكان أن «اشتَغَل الإعلام بالنشر ورفع شعاره المُدَمّر: (كتاب كُلّ ست ساعات)، كما اشتغل بالمسرح فَرَفع شعاراً ليس أقلّ ضَرَراً: (مائتا مسرحيّة في العام).»[3]

* * *

إنّ الدور الضّارّ الذي تؤدّيه الدولة من حيث دفعها المثقّفين إلى تطليق السياسة فعلاً وكتابةً يعود إلى البروز في رائعة محفوظ **ميرامار**. فعامر وجدي يترك حزب الوفد عقب حادثة الرابع من فبراير عام ١٩٤٢،[1] وينتقد كُلّ الأحزاب السياسيّة ويجهر بولائه الكامل للثورة التي استطاعت، حسب رأيه، أن «تمتصّ التيّارات» التي سبقت الثورة واستطاعت كذلك أن تحقّق الاستقلال.[2] غير أنّ صحفيّين جدداً «لقنُوا علمهم في السيرك» ورئيس تحريرٍ غبيّاً أشبه ما يكون «بالقرقوز» لا يلبثون أن «يجتاحوا» الصحافة «ليلعبوا دور البهلوانات» وليدفعُوه إلى اعتزال مهنته.[3] بل إنّ «الأنذال واللوطيّين» لم يُكْرِموا الصحفي السّياسيَّ الوطنيّ العتيق «بكلمة وداع ولا بحفلة تكريم» حين أعلمهم بعزمه على الاستقالة.

إنّ عامر وجدي هَهُنا ينتقد، شأنه في ذلك شأن عثمان في **الشحّاذ**، الأوضاع الثقافيّة التي سادت بعد قيام الثورة، وهي أوضاع «اجتاحتها» السطحيّة والميوعة.[4] وقد يقول قائل إنّ «الاجتياحات» في العادة تتمّ على أيدي الضبّاط لا «البهلوانات»؛ فهل يعني ذلك أنّ عامر وجدي ومن خلفه المؤلّف الضمني يحاولان تفادي المواجهة مع الضبّاط و«امتدادات» هؤلاء الضبّاط الذين اتّهمهم بعض المثقّفين المصريين باجتياح المؤسسات الثقافيّة كما سبق أن رأينا في الفصل الأوّل؟ إنني شخصياً لا أعتقد أنّ انتقاد «بهلوانات الثقافة» يُلغي بالضرورة احتمال أن يكونَ ذلك النقدُ موجّهاً «للمثقّفين الجنود» كذلك؛ ذلك أنّ الفريقين قد يتعايشان ويتعاونان (وقد تمّ ذلك بالفعل في تاريخنا العربي) على حساب ما أسماه علي الرّاعي الثقافة «العميقة الأثر البعيدة الغور.» وفي كُلّ الأحوال يبقى أنّ عامر وجدي، ذلك المثقّف الوفديّ الذي ساعد الثورة والدولة الفتيَّتيْن على نشر مبادئهما في فترة عصيبة من تاريخ مصر الحديث، يُكافأ بالطَّرْد.

* * *

لعلّ من الأسباب الأولى لتخلّي دياب عن السياسة ولاستقالته من المجلّة في **زينب والعرش** خلافَه مع المؤسسة الحاكمة على معاملتها الحسنة للمثقّفين الانتهازيّين. فدياب ضابطٌ يتمتّع ببعض المزايا الثقافيّة وبالكثير من الورع والحماسة الثوريّة، وهو لهذا كُلّه لا يستطيع أن يستوعب إصرار «المسؤولين» (أي رجال السلطة) على

---

(١) راجع الفصل الرابع من هذا الكتاب: «التوقيف، السجن، التعذيب».

(٢) علي الرّاعي، «ثورة ٢٣ يوليو والثقافة،» الهلال، آب ١٩٨٥، ص ٢٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٨.

(١) في ذلك اليوم، حاصَر البريطانيُّون قصرَ عابدين وأجبروا الملك على التنازل عن العرش أو القبول بمصطفى النحّاس باشا رئيساً للوزراء. وقد قبل الملك بالنحّاس.

(٢) ميرامار، الصفحات ٢٣ و٥٤.

(٣) المصدر السابق، ص ١٤ و١٥. وهنا ينبغي التأكيد أنّ هذه المعلومات واردة في واحد من النصوص التحتيّة (Subtexts) داخل الفصل الذي يرويه عامر وجدي، وهي نُصوص تنتمي إلى زمن سابق على دخوله بانسيون ميرامار، أي قبل عام ١٩٦١.

(٤) أرى أن «القرقوز» و«البهلوانات» ينتمون إلى فترة ما بعد ١٩٥٢ لسببيْن اثنيْن. أوّلهما يُفيدُه النصّ: فعامر كان لا يزال صحفيّاً يمتدح الثورة حين قامت. وأمّا السبب الثاني فتاريخي «خارنصّيّ» (extratextual) أورده في متن البحث أعلاه.

إبقاء عبد الهادي النجّار ـ الصحفيّ اللاأخلاقي الذي كان بوق دعاية لأحد الباشاوات قبل نجاح الثورة ـ في إدارة المجلّة التي تنادي بمبادئ ناصريّة. إنّ «المسؤولين» يصدمون دياباً ثلاث مرّات: الأولى عندما يطلبون منه «أن يُعامل الأعداء بالحُسْنى»:

> [لقد قالوا له] إنّ القضيّة ليست قضية أخلاق. . . . ثُمّ إنّ القضاء على الفساد لن يتمّ بضربة قاصمة كما يتصوّر دياب. إنّ المعركة ضد الفساد شديدة التعقيد، ولا بُدَّ من تهيئة ظروفٍ لنموّ الصّالحين وتدريب المتعاونين وتمكينهم شيئاً فشيئاً من السيطرة على العمل، وعندئذ يسقط الأعداء دون أن يحدث ضررٌ بالعمل.(١)

أمّا الصَّدْمة الثانية فتأتيه حين يعلم أن التنظيم السرّي الذي كانَ من المفترض فيه أن يستأصل الفساد من المجتمع يَضُمّ ـ فيمن يَضمّ ـ عبد الهادي النجّار، أبا الفساد! وأمّا الصدمة الثالثة والأكثر قسْوة فتأتيه حين يطلب منه «المسؤولون» أن يرجع عن قراره المتعلّق بفصل عبد الهادي من إدارة المجلّة لأنَّ قراراً كهذا:

> قد يُثير مَشاكِلَ وأصداء لا بُدَّ من وضع حساباتٍ لها. هناك مائة موقع على الأقلّ ستضيء النور الأحمر بمجرّد إعلان هذا النبأ. صحافة وإذاعة الخارج، مواقع في البلاد العربية، قوى داخل البلد ستتصوّر أننا مقدمون على اتجاه مضاد لمصالحهم، عشرات سيتصوّرون أنّ قرارات مماثلة سوف تلحق بهم. . .(٢)

ففي مواجهة رؤية دياب المانويّة (Manichaean) التي تؤكّد على وجود تعارض حتميّ بين «الخير» و«الشر»، تطرح السلطة سياسة «ديبلوماسية»(٣) وعمليّةً وتكتيكيّةً تأخذ في عين الاعتبار مكامِنَ القوة عند الأعداء من مالٍ وتحالفات وخبرة في ميدان الإعلام. وفي مواجهة تقسيماته الأخلاقيّة للصحفيين ـ وهي تقسيمات تكاد أن تكون عسكريّةً صارمة(٤) ـ تطرح السلطة سياسة واقعية (realpolitik) تأخذ الحلفاء والأعداء على المستويات المحليّة والقوميّة والعالميّة في الحسبان قبل القيام بأيّ خطوة.

إنّ ما يجب أن يسترعي اهتمامنا هَهُنا ليسَ المفاضلة بين كلتا السياستيْن لأنهما تتجاهلان في الواقع خصوصيّة الساحة الثقافيّة فتحصرانها في ميدان الأخلاق العسكرية أو السياسة. بل إنّ اهتمامنا يجب أن ينصبَّ على طرح الأسئلة البسيطة والبيانيّة التالية: أليس من المستحيل على مثقّف مَدَنيّ، كيوسف منصور، أن يتعامل مع مؤسّسة سياسية/ عسكريّة حين يَفْشل في ذلك التعامل ضابطٌ ساهم في تأسيس تلك المؤسّسة ولم يَحُزْ إلاّ على بعض الخصائص الثقافية غير المصقولة؟ ألا يشعر ذلك المثقّف المدني باغتراب أعظم وميْل إلى الهروب من ميدان السياسة أشدَّ من اغتراب «المثقّف» العسكري وهروبيّته؟.(١)

ولذلك فإنّي أعتقد في هذا السّياق أنّ «اكتشاف يوسف منصور الجديد» الذي يتحدّث عنه في خاتمة الرواية يتضمّن استقالته من تنظيم السلطة السرّي ومن الجريدة معاً، كما يتضمّن بناءَ مشروع تعليميّ وجماعيّ في الآن نفسه (مدرسة؟ حزب؟ رابطة كتّاب؟ مجلّة جديدة؟) كما تشير كلماتُه التالية:

> هل يعترف [لزينب] بأنّ التعليم وحده لم يحقّق شيئاً؟ ألمْ يَتعلّم عبد الهادي النجّار، ألم يتعلّم حسن زيدان، ألم يتعلّم دياب؟ ما الذي صنعوه؟ ما الذي حقّقوه؟ إنّ نفوسَ الأفراد تفسد، وإذا لم تفسد فهي تموت. . . لا أحد يستطيع حماية صدق نفسه إلاّ إذا تكاتف الجميع على أن يصونوا معاً صدق نفوسهم. ولكن كيف؟ وهنا خطر ليوسف خاطر جديد، لم يكن واضحاً، ولكنّه أحسّ برغبة في أن يندفع في سيره بحيوية ونشاط. . .(٢)

* * *

توحي **ثرثرة فوق النيل** بأنّ الدولة، مؤسّساتٍ وشعاراتٍ، تتحمّل مسؤولية عظيمة في دفع الإنسان والمثقّف تحديداً إلى التغرّب عن مجتمعه والهروب من ميدان السياسة. فالنّاس في ظلّ الاشتراكيّة النّاصرية لا دورَ لهم؛ يقول علي السيّد: «لَسْنا أنانيّين. . . ولكنّنا نَرى أنّ السَّفينَةَ تسيرُ دون حاجة إلى رأْينا أو معاوَنَتنا وأنّ التفكيرَ بعد ذلك لن يجدي شيئاً وربَّما جَرَّ وراءَهُ الكدرَ وضغطَ الدمّ.»(٣) والقطاع العامّ لا يوحي بالثقة بل يُعتبر وسيلة للربح الفردي لمن يعمل فيه؛ فأنيس يُبرّر سرقتَه خمسينَ قرشاً من حقيبة سارة بالقول إنّ «جميع ما تقعُ عليه اليد في العوّامة [يُعَتَبرُ] من القطاع العام»!.(٤) أمّا الشعارات والكليشهات السياسيّة المرتبطة بالنّاصرية فإنّها هي الأخرى موضع استهزاء روّاد العوّامة ووسائلُ اسْتلابٍ أُخرى؛ فـ «الغيرَةُ تراثٌ إقطاعيٌ» و«الموقف الدولي سوف يتحسَّن» و«الفاشستيّة سوف تندحر» بمجرّد أن تستجيب سناء لقُبْلَةِ

---

(١) يقول روبرت مايكلز في عمله الرائد إنّ «الرجال العظام»، شعراء كانوا أو محبّي جمال أو رجال علم، ليسوا معتادين على مجابهة معارضةٍ منظّمة داخل حزب أو مؤسّسة: «إنّهم حين يُجبَرون على خوض مقاومة طويلة يضعُفون. ولذلك فإنّ من اليسير علينا أن نفهم سبب تخلّيهم في الغالب، تقزّزاً وخيْبةً، عن النضال، أو سبب تشكيلهم «شلّة» صغيرة خاصّة تقوم بالعمل السياسي المستقلّ. . .» Robert Michels, **Politic-al Parties: A Sociological Study of the Oligarchical Tendencies of Modern Democracy**, trans. from the German by Eden and Cedar Paul (New York: Dover Publications, 1959), p. 103.

(٢) **زينب والعرش**، الجزء الثاني، ص ٣٧٦.

(٣) نحيب محفوظ، **ثرثرة فوق النيل في الأعمال الكاملة**، المجلّد السابع (بيروت: المكتبة العلميّة، لا تاريخ)، ص ٤٥٠.

(٤) المصدر السابق، ص ٥٠٠.

(١) **زينب والعرش**، الجزء الأول، ص ١٠٨.

(٢) المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٤٩.

(٣) المصدر السابق، الجزء الأول، ص ١١٠.

(٤) يقسّم دياب الصحفيين إلى ثلاث مجموعات واضحة المعالم هي: الأعداء، الموالون، غير المشبوهين؛ ويرى أن المجموعة الثانية «أركان حرب» سوف «تقود العمل» وتضع «خطة تنفيذ» (المصدر السابق، ص ٤٠٦).

رجب![1]. وأمّا الواقعيّة الاشتراكيّة، سلاحُ النـاصريّـة على السـاحة الأدبيّـة، فمُمِلّة كما أنّ الأدب الهـادف ثقيلُ الـدم[2]. وإخيـراً فـإنّ الشرور القديمة التي يزعم النظامُ النّاصري أنه قد نجح في استئصالها (كـالفساد ونـزعة الاستهـلاك) باقيـة لتؤجّـجَ لهيب الاغـتراب عنـد المثقّفـين السياسيـين ولتبرّر هـروبيّتهم؛ ولذلـك نجـد أحـد أبـطال الـرواية يسـأل هازئـاً: «هـل من جـديـدٍ عن العُـمّال والفـلاّحـين؟ والـرشـوة، والعملة الصعبـة، والاشـتراكيـة، واكتـظاظ الـطرقـات بالسيّارات الخاصة؟»[3]

إنّ استراتيجيّة التغريب والسَّلْب التي تتبعها الدولة تبـدو أكثر مـا تكون وضوحـاً حين ننـظر إلى ما آل إليـه أنيس زكي الذي يُعـاني، بالإضافة إلى إحباطاته العاطفية والمالية والتعليمية[4]، شكلينْ آخرين من الإحباط سبَّبتهما تلك الاستراتيجيّة بشكـل مباشر. أوّلهـما مِهَنيّ: فـأنيس لم يستطع، عـلى طاقـاته الثقـافية، أن يؤمّن لنفسـه أكثر من منصب سكرتير في وزارة الصحّة؛ بل إنّه لم يؤمّن ذلك المنصب عينَه إلاّ بعـد استخدام «الـواسطة». أمّـا ثاني أشكـال الإحباط وأكـثرهما قسوة، فسياسيّ. ونحن نعلم في هذا الصّدد أنّ أنيساً، شأنه في هذا شأن مصطفى راشد، قد كان لسنوات خلت صـاحبَ أفكار ثـوريّة كادت أن تُودي به ذات يوم أثناء مشاركته في تظاهـرة ثوريـة.[5] غير أن تلك الأفكار «المشتعلة بالحـماس» لا تلبث أنْ «تُدْفَنَ تحتَ رُكـامٍ من الثلج.»[6] وإنّ أحـداث الروايـة لتوحي بـأنّ سبب اندثـار تلك الأفكار وذلك الحماس يعود بشكل أساسي لعيـوب الجهاز النّـاصري كالبيروقراطيّة والفساد.

IV ـ قد يشاء مثقّفٌ هروبيّ، في لحظة من اللحـظات، أن يخرج عن صَمْته ليجهر بعدائه لبعض سيـاسات النـظام أو يوجّـه له نقـداً مباشراً أو غيرَ مباشر. فالقارئ سوف يُلاحظ أنّ هروبيّة أنيس، على سبيل المثال، تختلف عن هروبيّة سـائر أبـطال ثرثـرة في أمرين عـلى الأقل. أوّلهما إصرارُ أنيس ذات هنيهة على مسؤولية المرء تجاه أعمالـه وعلى ضرورة «قول ما يجب أن يُقال». والثاني نقده اللّطيف والمبـطّن للنظام بسبب فشله في التخلّص من مساوئ المجتمع؛ فأنيس يـذكر في لحظة من لحظات «التسْطيل» كلمات الحكيم ايبو ـ ور لفرعون:

> إنّ ندماءك قـد كذبـوا عليك. هـذه سنواتُ حَـرْبٍ وبلاء. مـا هذا الذي حدث في مصر؟ إنّ النّيل لا يزال يأتي بفيضانه. إنّ من كان لا يمتلك أضْحى الآن منَ الأثـريـاء... لـديْـك الحكمـةُ والبصـيرة والعـدالـة، ولكنّـك تـترك الفسـاد ينهشُ البـلاد. انـظُرْ كيفَ تُمتَهنُ أوامرك! وهل لك أن تأمر حتى يأتيك من يحدّثك بالحقيقة؟[1]

إنّ نجيب محفـوظ إذْ يجعـل ايبـو ـ ور يهـاجم «النُّـدمـاء» لا «الفرعون» نفسه وإذْ يصوّر أنيساً في وضع «تسطيل» (أي في وضـعٍ يجعله غـير واعٍ لموقفـه السياسي المبثوث في كلام «الحكيم»)، فـإنّه (أي محفوظ) لا يكتفي بتوجيه نقد مدروس ودقيق للجهاز الحاكم في مصر الحديثة، وإنّما يوحي كذلك بأنّ ما نعتبره هُروبـاً قد يكـون في أحيان كثيرة شكلاً من أشكال الاحتجاج السياسي.[2]

V ـ المثقّف الهـروبيُّ في العادة رجـلٌ حـزين. فـالمثقّف السيـاسيّ الذي يصمّ أذنيْه عن المظالم لإيمانه بأنّ «العينْ لا تُقاوم المِخْرَز» وبأنّ الأنـظمة جميعهـا لا تستحقّ إلاّ الكره أو الـرثـاء يهـرب من الـوجـع الجسـدي، لكنّه يعـاني من أوجـاعٍ أشـدّ فتكـاً. إنّ امتنـاع المثقّف السياسي عن العمل السياسي الرّاهن أو عن الكتابة في المـوضوعـات السيـاسيّة الـرّاهنة يعني مـوتَـه العقـليَّ والنفسيّ. فهـو يشعـر بضغط المجتمـع وبضغط زملائـه عليه أنْ تكلّمْ، انقـدْ، ثُرْ، تمـرّدْ، دَمِّـرْ، ابْنِ، لكنْ إيّـاك أن تصمت. ولعـلّ كلمات روائي البـيرو مـاريـو فارغاس ليوسا عن توقّعات شعوب أمريكـا اللاتينيّـة من مثقّفيها أن ينطبق على ما تتوقّعه الجماهير العربيّة من مثقّفيها كذلك:

> [إنّ الجماهير] قـد اعتادت أنْ تـرى إلى الأدب بوصفـه عملاً شـديد الارتباط بالمشاكل الاجتماعيّة الحيّة، بوصفـه نشاطـاً يُشير إلى كُـلّ ما هو مكبوت ومشوّه في المجتمع فيسمّيـه أو يصفه أو يـدينه... وبمعنى آخر، فإنّ هذا يُضفي على الكاتب، من حيث كونُـه مواطنـاً، نوعـاً من القيادة المعنويّة والروحيّـة. وعلى الكـاتب أن يَسْعى لأنْ يتصرّف بمقتضى الدور الذي يُتَوَقّعُ له أن يؤدّيه...[3]

ويـذهب الروائي المغـربيّ الـطّاهـر بن جَلّون إلى أن الكـاتب في «هذه القارّة الآهلة بالأُميّين» وبـالشعوب «المسحـوقة الفقـيرة» سوف يُصْبح وبدون علم منه «بمثابـة صحافيّ، ومحـامٍ، ورسولٍ، ونـاطِقٍ

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٣٥ و٤٣٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٠٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٥٨.

(٤) تخبرنا الرواية أن أنيساً يوقف دراسته بسبب مشاكل مالية وعاطفية ـ فقد ماتت زوجته وابنته في شهر واحد. غير أن رجباً يعتبره، رغم كُلّ شيء، «مُثقّفاً»؛ فـأنيس قد أحـلّ مكانَ الشهادات معرفةً واسعة «بالطبّ والعلوم والحقوق» (ص ٤٣٢) ومكتبة «دسمة» هي كُلّ ما يملك في هذه الدنيا.

(٥) المصدر السابق، ص ٤٧٩.

(٦) المصدر السابق، ص ٤١٧.

(١) المصدر السابق، ص ٤٩٦.

(٢) يـرى حليم بـركـات في مقـطع ثـرثـرة المـذكـور أعـلاه ثـلاثـة أشكـال من المُـراوَغـة (evasiveness): «ثمّة مُراوغة مزدوجة... [في] التحدّث إلى فرعون قديم وفي توجيه اللوم إلى مُساعديه. بل إنّ باستطاعة المرء أن يكشف عن شكل ثالث من المـراوغة في مدح [الحكيم] للحاكم، مضفياً عليه صفـات الحكمة والبصـيرة والعدالـة في حال لم تنجح الخدعتان الأوّليان.» راجـع بركـات، **Visions of Social Reality in the Contemporary Arab Novel** (Washington D.C.: Georgetown University, Institute of Arab Development, January 1977), p. 130.

(٣) راجع الكتاب الهام الذي أشرف عليه **George Theiner** بعنوان **They Shoot Writers, Don't They?** (London: Faber and Faber, 1971), p. 166.

باسم العمّالِ، ومُدافع عن قضيّة، وكاتبٍ عموميّ، ونبيّ الأزمنة العصيبة، ورجل ملتزم بسائر النضالات الوطنية، ورمزٍ، وأسطورة. . . ».[1] صحيحٌ أنّ المثقّف قد يرفض أن يتصرّف بمقتضى الصورة التي رسمها النّاسُ عنه، مُؤثراً في تلك الحال أن «ينزوي في أحلامه الشخصيّة.» لكنَّ هَذا:

> سوف يُعتَبرُ (بل إنّه لكذلك، بشكل ما) خياراً سياسياً وأخلاقياً واجتماعياً. إنّ قُرّاءه الحقيقيّين والمحتملين سوف يعتبرونه آبقاً وخائناً. . . أن تكونَ فنّاناً، فنّاناً فحسب، قد يعني في بلادنا نوعاً من الجريمة الخلقيّة، [نوعاً من] الخطيئة السياسية. . .[2]

إنّ القسم التالي سوف يطرح إذن مسألتيْن: عَذاب المثقّف المتخلّي عن النضال السياسي، والوسائل التي يستخدمها لرفع ذلك العذاب عنه.

* * *

يعجز نمطُ الحياة البورجوازيُّ الذي يسلكه عمر الحمزاوي بعد اعتقال عثمان خليل عن توفير الرّاحة النفسيّة والجسديّة له. ولذلك يعقد العزم على هجران عائلته بحثاً عن تلك «النشوة الغريبة الغامضة» التي وجدها ذات يوم في الحبّ والشعر. غير أنّه يكتشف أنّ العلاقات النسائيّة المتعدّدة التي أقامها تعجز هي الأخرى عن إيصاله إلى تلك «الحقيقة المطلقة» الوجدِيّة.[3] فيقضي عاماً ونصف العام في كوخٍ ناءٍ ويحيا حياةً يمتزجُ فيها الجنون بالأحلام والحقيقة والخيال. إلّا أنّ «نداء الحياة» لا يكفُّ عن مُلاحقتِه حتّى في عِزّ أحلامه، ويعود إلى حياة الواقع حين يستنجد به عثمان خليل الهارب من وجه بوليس النظام النّاصري، فيُصَاب بطلقة ناريّة طائشة ويُعتقلِ الصديقان ويُرمَيان في سيارة الشرطة.

ثمَّة رسالتان مترابطتان في **الشحّاذ**، تُعنى الأولى منهما ببؤس المثقّف المتخلّي عن العمل السياسي: فالماضي يسكنه، والحاضر يؤلمه، والوحدةُ كما الأحلامُ والتصوّف لا تُقدّم له العَزاءَ. أمَّا الرسالة الثانية فتشدّد على استحالة ذلك التخلّي أصلاً. إنّ كُلّ ما في ماضي عمر وحاضره وأحلامه سِياسيٌّ بشكلٍ أو بآخر؛ فالهروب من هذه الحقيقة يعني هروباً من كُلّ حقيقة. بل إنّ **الشحّاذ** تذهب إلى أبعد من ذلك حين تُلمح إلى أنّه قد لا يكون في مقدور المثقّف السياسيّ أن يتخلّى عن السياسة حتى لو شاءَ ذلك لأنّ السلطة سوف تبادر بنفسها إلى زجّهِ في الصراع معها. إنّ صرخةَ عثمان طالباً النجدة ورصاصةَ الشرطة في جسد عمر تذكّرانِ المثقّف المتخلّي عن العمل السياسي بتجذّره المحتوم في التاريخ الماضي والحاضر وبحاجته للانخراط المتجدّد في عمليّة الصراع الاجتماعي. ولعلّ هذا ما رمى إليه محمود أمين العالم حين قال:

> لا طريقَ إلى نشوةَ اليقين، إلى رعشة الحقيقة، بالعُزلة والتفرّد والانقطاع عن الدنيا. . . عُمرَ لن يحقّقَ نشوةَ اليقين بالانتظار العقيم. . . وإنّما وهو في عربةٍ واحدة [أي في تحالف كامل ونضالي] مع عثمان. . .[1]

* * *

يعتقد بعضُ المثقّفين الراديكاليّين (وبغضّ النظر عن انتماءاتهم السياسيّة) أن الإحجام أو التراجع عن مشابكة الواقع السياسي شبيهان إلى درجة لا يمكن تحديدُهما بالخيانة؛ وهذا ما عبّر عنه الشاعر المصري الشعبيّ أحمد فؤاد نجم حين قال إنّ «الكلمة اللّي ما تبقى رصاصة ملعونة وخاينة.»[2] إن الهروبيّ، بسكوته عن المظالم وتخلّيه عن السياسة، يُفاقم في رأي أولئك الراديكاليين الجمودَ والعفونة والقمع في أيّ مجتمع يعيش فيه. وقد يتنبّأ بعضهم بأنّ «صمت» الهروبيّ لن يجديه نفعاً لأنّ سيف القمع قد لا يوفّره إلى الأبد!

لن يكون هدفنا في هذا الكتاب أن نُقيّم ما إذا كان الهروبيّ/المتراجعُ خائناً أم لا[3]. حَسْبُنا أن نُشير إلى أنّ الإحساس بالخيانة يراود المثقّفَ المتراجع صاحبَ المبادئ والضمير، فيسبّب له عذاباً ممضّاً. وهذا ما يحصل لمنصور باهي في **ميرامار**. صحيحٌ أنّه لا ينخرط في أيّ عمل معادٍ للخليّة اليساريّة السريّة التي سبق أن انتمى إليها، غير أنّه يتّهم نفسه بـ «الخيانة»[4] لكونه قد أثبت ضعفه واستسلامه لأخيه الضابط الذي طلب منه أن يتخلّى عن رفاقه

---

(١) الطاهر بن جلّون، «دفاعاً عن الذّاتيّة المتمرّدة،» الآداب، العددان الثاني والثالث، شباط/آذار ١٩٨٠، ص ٩٥.

(٢) LLosa، في كتاب Theiner السالف الذكر.

(٣) الشحّاذ، ص ١٦٢.

(١) محمود أمين العالم، «نجيب محفوظ بين **أولاد حارتنا والشحّاذ**،» الهلال، تموز ١٩٦٥، ص ٧٦.

(٢) إنّ ذلك التقييم لدور الكلمة يتناقض مع تشديد جوليان بَنْدا على أنّ «خيانة» المثقّفين تكمن في إقحامهم «عواطفهم السياسيّة» في قلب نشاطاتهم الثقافيّة. راجع، Julien Benda, **The Treason of the Intellectuals**, trans. from the French by Richard Aldington (New York and London: W.W. Norton and Company, 1969).

(٣) لا بدّ من القول، مع ذلك، إنّ ثمّة فوارقَ واضحة بين النوعيْن: (أ) فالمتراجع لا ينخرط عادة في أيّ عملٍ معادٍ بشكل حقيقيّ ومباشر للجماهير، أو للحزب، أو للثورة؛ ولذلك فإنّ «الدمار» الذي قد يحدثه لأيٍّ من تلك المجاميع قليلٌ قياساً إلى ما يحدثه «الخائن»؛ (ب) إنّ المكاسب التي يجنيها الفريقُ المعارضُ لتوجّهات المثقّف المتراجع جَرّاء تراجعه قليلة هي الأخرى قياساً إلى المكاسب التي يجنيها ذلك الفريق بفضل خيانة الخائن؛ (ج) إنّ الهروبيّ لا ينفضُ يده من «الثوريّين» كُلّياً، كما أنّ هؤلاء لا ينفضون أيديهم منه كذلك.

غير أنني أستدرك فأقول إنّ الاستنتاجيْنِ الأوّل والثاني لا يصحّان إلّا حين يكون للمثقّفيْنِ الاثنين تأثير مماثل على المجتمع والثقافة؛ وإلّا فإنّ متراجعاً ذا شهرة ونفوذ لَبُعدَ أهمّ في أعين المؤسّسة التي يتجنّب مواجهتها من خائن لا قيمة أدبيّة له.

(٤) ميرامار، ص ١٦٩.

السياسيين. بل إنّه يبرّر للآخرين أن يرموه بالتجسّس لصالح أخيه، أي لصالح السلطة الحاكمة. وتشتدّ مُعاناته النفسيّة كُلّما ذكّر نفسه بأنّه لمّا يزل على إيمانه بمُثل الخلّية الطامحة إلى «الثورة الحقيقيّة»[1]؛ وفي لحظة محدّدة يجهر بنقده للثورة التي كانت «أرفق» مما يجب بأعدائها[2]، كحسني علاّم، رجل الفدّانات المئة. إنّ ذلك الصراع الداخلي بين الإيمان بأهدافٍ معيّنة من جهة، والعجز عن العمل لتحقيق تلك الأهداف من جهة أُخرى، يَرْمي بمنصور إلى مهاوي «الجحيم.»[3]

غير أنّ المتراجِع المُعذَّب يقرّر أن يخطو خطوات أربعاً أملاً في قلب سيرته الهروبيّة. فهو يقرّر (أ) أن يكتب برناجاً لإذاعة الاسكندرية عن «تاريخ الخيانة في مصر»؛ (ب) وأن يُغرق نفسَه في الخيانة، وذلك بإقامته علاقةً عاطفيّة مع زوجة المناضل فوزي أثناء اعتقال هذا الأخير؛ (ج) أن يطلب يد زهرة، الفلاّحة المصريّة الفقيرة بعد أن تخلّى سرحان عنها؛ (د) أن يقتل سرحان.

سوف نتناول لاحقاً خطوتي منصور الثانية والثالثة بالتفصيل ـ علماً أنّهما الخطوتان الوحيدتان اللتان نفّذهما بالفعل. فأمّا الخطوة الأولى فإنّي أرى أنّها تفيد منصوراً لا في قلب ماضيه «الخيانيّ» من الناحية النفسية فحسب، وإنّما تنطوي على مدلول جماعي لأنّها تهدف إلى تحذير الأمّة جمعاء من هروبيّين/ «خائنين» مثله. وأمّا الخطوة الرّابعة فتحتاج إلى المزيد من التفصيل. صحيح أنّ تخلّي سرحان عن الفلاّحة الفقيرة لصالح عَلِيّة الأكثر ثراءً لا يبرّر في حدّ ذاته اشتعالَ منصور بالغضب، أو إيمانَه بأنّ وجوده قد أضحى نقيضاً لوجود سرحان، أو عزمَه على قتله بتهمة «الخيانة.»[1] غير أنّنا إذا تأمّلنا ما قد يَرمز إليه كُلٌّ من سرحان وزهرة في رواية محفوظ[2]، فإننا قد نكتشف أنّ خيانة سرحان لزهرة تُسلّط الضوء في عقلِ منصور باهي على شكلين آخرين من الخيانة: تخلّيه عن الكفاح السياسي، واستئصال أخيه الضّابط النّاصري لبذور «الثورة الحقيقيّة.» إنّ قتلَ منصور لسرحان سوف يعني أمريْن: قتلَه هو (أو بالأحرى قتلَ الوجه الخياني لمنصور باهي)، وقتل أخي منصور، سفّاح «الثورة الحقيقيّة» التي يمثّلها فوزي ورفاقُه.

يبقى السؤال التالي: لماذا لا يفكّر منصور في قتل أخيه الذي «يدفعه» إلى الخيانة؟[3]. وإجابتي على هذا السؤال ذات شقّيْن: إنّ قتل الأخ سوف يؤدّي من الناحية النظريّة إلى نتائج مماثلة لتلك التي قد يُنتجها قتلُ سرحان من حيْث أثَرُها «التطهيري» السياسي في نفس منصور؛ غير أنّ قتلَ الأخ لأخيه قد يُفاقم من شعور منصور بالذنب. وأمّا الشقّ الثاني من الإجابة فهو افتراضيّ يصعب التحقّق منه وإنْ كنتُ أحدس به: فالواقع أنّ مجرّد التفكير في قتل ضابطٍ في الجيش قد يعرّض للخطر مهنة نجيب محفوظ وسلامته الشخصية. وإنْ صحّ حَدْسي هذا فإنّ ميرامار تتضمّن هَهُنا شكلاً رابعاً من أشكال المراوغة التي تحدّث عنها بركات سابقاً.

---

(١) المصدر السابق، ص ١٥٠.
(٢) المصدر السابق، ص ٥٢.
(٣) المصدر السابق، ص ١٦٢.

---

(١) ميرامار، ص ١٨٤.
(٢) في الفصل الرابع من هذا الكتاب أُبيّن أنّ زهرة تحمل ملامح من الوطن المصريّ ومن «الثورة الحقيقيّة» (أي تلك التي تلغي التناقضات الاجتماعية القديمة ولا تكتفي «بإزاحتها بتناقضاتٍ جديدة» على نحو ما فعلت ثورة ١٩٥٢ ـ حسب تقديري لموقف فوزي من هذه الثورة المستخلص من الحوار عن سعد زغلول). وقد سبق أن رأينا أنّ سرحان يمثّل المثقّف الانتهازي الذي يستغلّ الثورة والدولة على حساب مصر والثورة الحقيقيّة.
(٣) ميرامار، ص ٢٠٠.